بيروته لا تزال تسحر الناظرين

عمر الأنسي
الانطباعي الذي انتقل من الصحراء إلى بحر لبنان

فاروق يوسف

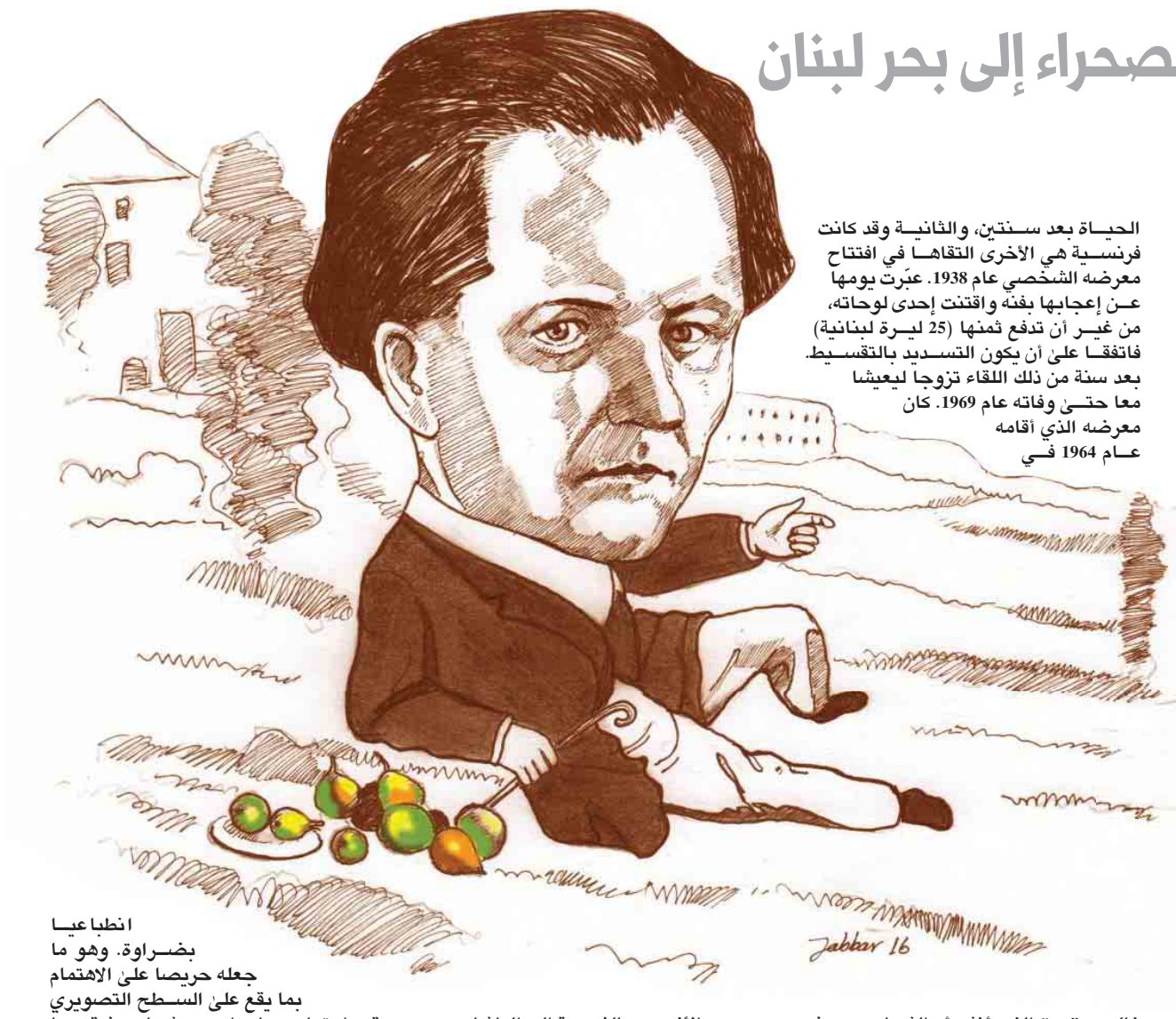

لندن – "سواك خُلق ليكون طبيبا. أنت خُلقت لتكون رساما"، جملة قالها له الفنان خليل صليبي حين رأى رسومه الأولى أحدثت انقلابا في حياته. بعد سنة واحدة من دراسة الطب جاءت تلك الجملة لتوقظ في أعماقه حساسية جده الذي كان شاعرا ولتغلق الباب أمام حلم أبيه الذي كان طبيبا.

انصرف حينها عمر الأنسي إلى الرسم تاركا الطب لسواه.

كان صليبي محقا. بسبب نصيحته أضيف اسم لامع إلى جيل الفنانين الرواد، مصطفى فروخ، جورج القرم، صليبا الدويهي، قيصر الجميل ورشيد وهبي. وهو جيل أرسى قواعد الرسم في لبنان وفتح الأبواب أمام الأساليب الفنية التي كانت سائدة في أوروبا، فكان بمثابة المؤسس والفاتح في الوقت نفسه.

الرسام الذاهب إلى صحرائه

إذا ما كان معظم أفراد ذلك الجيل قد انهمكوا في رسم الطبيعة التي يولد اللبنانيون على إيقاع الشغف بها فإن فرصة لم تتح للآخرين مكنت الأنسي من رسام الصحراء الوحيد. وهي صفة ربما لم يكتسبها رسام عربي آخر.

> معظم أفراد جيله انهمكوا في رسم الطبيعة التي يولد اللبنانيون على إيقاع الشغف بها، لكن فرصة لم تتح للآخرين مكنت الأنسي من رسام الصحراء الوحيد. وهي صفة ربما لم يكتسبها رسام عربي آخر

الأنسي الذي تعرف على الصحراء في سن مبكرة من حياته قدر له أن يترك إرثا تصويريا نادرا، يوثق من خلاله لحظات جمال نادرة، ستحتفظ دائما بنضارتها الفنية وقوة حضورها التاريخي بسبب أن أحدا من الرسامين العرب لم يقتف أثر الأنسي.

غير أن مؤرخي الرسم في العالم العربي سيذكرون له مأثرة أخرى. فبعد أن رسم الصحراء بغزلانها وبدوياتها وفرسانها حفز وجوده رساما في بلد حديث التأسيس هو الأردن الحاجة إلى أن يكون هناك رسامون أردنيون. لذلك يُشار إليه باعتباره سببا رئيسا لبدء المغامرة الفنية في الأردن إن لم يكن داعيتها الأول.

يقول أمين الريحاني في وصف واحدة من روائع الأنسي "في لوحة الأنسي للحديقة أمام بيته، فن وفتنة معا، تتجلى فيها المحاسن الثلاث، المتانة والتنميق والخيال. وتمزج ريشته ألوان البادية الغبراء بذوبان أصفر ولجين من معدن الهجيرة والفجر وتشربها وفرا من النور"، وقد كتب الريحاني ذلك عام 1940 يوم لم يكن الأنسي قد تجاوز الأربعين من عمره.

الانطباعي الذي ارتقى بالواقع

ولد عمر عبدالرحمن عمر الأنسي عام 1901 في تلة الخياط ببيروت. عام 1918 بدأ دراسة الطب في الجامعة الأميركية غير أن نبوغه في الرسم جعله لا يتردد في العزوف عن الطب ليتفرغ للفن. سافر عام 1922 إلى عمّان لتعليم الملك طلال (جد العاهل الأردني عبدالله الثاني) اللغة الإنكليزية، لتمتد إقامته هناك خمس سنوات، قضاها وهو يرسم عالم الصحراء بكل ما يتضمنه ذلك العالم من مشاهد ساحرة وهبته القدرة على تمييز الأشكال والألوان التي لا تُرى بيسر.

أقام أول معرض فردي له وكان بعنوان "في القدس" عام 1927. لوحات ذلك المعرض هي حصيلة ما أنجزه في سنوات رحلته الأردنية. في العام التالي سافر الأنسي إلى باريس ليدرس الرسم في أكاديمية جوليان وهناك التقى بالنحات اللبناني يوسف الحويك رفيق صبا جبران خليل جبران وزميله في دراسة الفن بباريس. كان الأنسي محظوظا بلقائه الحويك الذي وهبه بعض المفاتيح الفنية لعاصمة النور، حيث كانت المدرسة الانطباعية هي سيدة العروض من غير منازع. وبمساعدة من الحويك أقام الأنسي معرضا لرسومه في باريس.

عام 1930 عاد الأنسي إلى بيته العائلي في تلة الخياط وصار يقضي وقته في رسم المشاهد الطبيعية مقتفيا أثر رسّامي الانطباعية الفرنسية الذين تأثر بهم. فكانت لوحاته التي صور من خلالها عين المريسة وشاطئ الأوزاعي وأحياء من بيروت بأزقتها الضيقة وبيوتها العتيقة تجسد طريقته في التسامي بالنظر الواقعي تماهيا مع شفافية العاطفة، وبالأخص أنه غالبا ما كان يلجأ إلى الرسم بتقنية الأصباغ المائية، وهي تقنية لا تقبل الخطأ أو الإعادة.

تزوج عمر مرتين. الأولى حبيبته التي التحقت به إلى بيروت عام 1933 لتفارق الحياة بعد سنتين، والثانية وقد كانت فرنسية هي الأخرى التقاها في افتتاح معرضه الشخصي عام 1938. عبّرت يومها عن إعجابها بفنه واقتنت إحدى لوحاته، من غير أن تدفع ثمنها (25 ليرة لبنانية) فاتفقا على أن يكون التسديد بالتقسيط. بعد سنة من ذلك اللقاء تزوجا ليعيشا معا حتى وفاته عام 1969. كان معرضه الذي أقامه عام 1964 في غاليري "ون" الذي أنشأه الشاعر يوسف الخال وزوجته الرسامة هيلين هو تحية وداع ووصية استثنائية، من جهة ما انطوى عليه من خلاصات فنية.

هل يمكن القول إن بيروت عمر الأنسي قد ألهمت الفنان أمين الباشا بيروته؟ الباشا في تجربته الفنية هو الفنان اللبناني الأكثر قربا من تجربة عمر الأنسي. تجمع بين الاثنين عاطفة تشدهما إلى بيروت، المدينة التي لا تزال مقيمة وراء حجب جمالها الخفيّ. وقد تكون تجربة استعمال تقنية الأصباغ المائية واحدة من أهم تلك الحجب التي حاول الرسامان اختراقها وصولا إلى أسباب الدهشة، منفعلين بنتائج عملهما الباهر.

يقول الباشا عن الأنسي "لنجرّب للمرة الأخيرة الماء والزهور والصخور، المرآة، الرجل، الطير، الغزال، التفاحة، الدار، الحديقة، الساقية، النبع، البحر، الشاطئ، الجبل، الأزرق، الأصفر، الأخضر، البني، الأصفر، الليلكي، الحب، البغض، السلم، الحرب، الشرق، الغرب، الأمل، اليأس، الحب، الحب، الحب.... عمر الأنسي".

عمر الأنسي بالنسبة إلى الباشا، وهو رسام بيروت من غير منافس، هو مفرداته المطلقة التي استطاع أن يجد لها ما يناسبها من رموز موضوعية في مدينته. لقد صنع الأنسي بالحب، وهي المفردة التي كررها الباشا ثلاث مرات، مدينته، أعاد خلقها بما يليق بها، ملهمة حكايات عن الجمال لا تنتهي. تلك المتاهة السرية التي مشى الباشا بين دروبها ورسم رسومه من أجل أن يتماهى مع لحظات سطوع نجمها وكتب كتبه من أجل أن نتعلم الجلوس مهذبين على أحجارها كانت من صنع عمر الأنسي. متاهة الأنسي لا تزال تغري الرسامين اللبنانيين في اقتفاء أثره.

رسام الرقة

كان عمر الأنسي واحدا من أكثر رسامي الرقة. لم تتميز رسومه بصخب لوني، بل كانت قريبة من التقشف وإن لم تعتمده نهجا. ربما حدث ذلك بسبب الإخلاص لما تقترحه الطبيعة من تحول في الانطباع. وكان الأنسي انطباعيا بضراوة. وهو ما جعله حريصا على الاهتمام بما يقع على السطح التصويري بقدر اهتمامه بما يراه من مشاهد. فبقدر ما كانت تفاصيل المشهد تشده إليها بقدر ما كان يحرص على أن يكون كل سنتيمتر من سطح اللوحة مكتفيا بقوته في الإيحاء اللوني. كل لوحة منه كانت مجموعة من الألغاز اللونية. وهو ما دفع بالبعض من نقاد الفن إلى النظر إلى أجزاء من لوحاته باعتبارها تجارب في التجريد.

لن يكون عمر الأنسي تجريديا مثل زميله صليبا الدويهي الذي انفصل عن مصادر إلهامه البصرية المحلية بسبب مكوثه الطويل في نيويورك. كان الأنسي حريصا على أن يكون ابنا وفيا لبيروت، من خلال وفائه للأسلوب الانطباعي الذي تعرّف عليه في باريس ووجد فيه ضالته. ربما لهذا السبب سحرت ألغازه اللونية أولئك النقاد الذين صاروا يرون فيه واحدا من مصادر التجريدية في لبنان مثلما يتم النظر في فرنسا إلى سلفه الانطباعي كلود مونيه.

انطباع عمر الأنسي كان واحدة من أكثر لحظات الرسم في العالم العربي رقة وشفافية.